نقوش عثمانية من دار السرايا، إربد



شكل ١. إربد: دار السرايا

زياد عبد الله طلافحه وأحمد صدقي شقيرات، دائرة الآثار العامة

يعتبر بناء دار الحكومة العثمانية، الذي يعرف باسم "سرايا اربد"[١] أهم الأبنية التراثية العثمانية التي مازالت باقية في مدينة اربد، مركز قضاء عجلون العثماني، بل إن هذا البناء هو من أكبر الشواهد التاريخية والحضارية العثمانية في هذه المدينة. وقد ترك العثمانيون على بوابة السرايا الجنوبية نقوشا عثمانية تتألف من الطغراء ونقش مكتوب باللغة العربية وتاريخ إتمام المرحلة الأولى والرئيسية للبناء، وهي عام ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م. وسوف نتناول في هذا المقال هذه النقوش بالدراسة والتحليل من جوانبها المختلفة[٢] (شكل ١).

الخلفية التاريخية

لا يعرف التاريخ الدقيق الذي اختيرت فيه مدينة اربد مركزا للواء عجلون العثماني، لكننا نستطيع القول من خلال بعض المعطيات والشواهد التاريخية بأن ذلك حصل في عهد أحمد باشا الجزار والي الشام وصيدا[٣] خلال الفترة ١١٨٤- ١١٨٩ هـ = ١٧٧٠ - ١٧٧٥ م[٤]، إثر سقوط الإمارة الزيدانية التي كانت تسيطر على لواء عجلون. فالشيخ احمد بن الظاهر العمر الزيداني الذي تولى لواء عجلون خلال الفترة ١١٨٤ - ١١٨٩ هـ = ١٧٧٠ - ١٧٧٥ م كان قد أتخذ من قرية تبنه مركزا للواء وأقام فيها مجموعة من الأبنية العسكرية والإدارية لممارسة الإدارة والحكم وضبط الأمن[٥].

١. "السرايا" أو "سرايا اربد". الوثائق العثمانية تشير إلى البناء باسم "دار الحكومة في القصبة". ويبدو أن كلمة "سرايا" أو "سرايا الحكومة" أو "سرايا اربد" جاءت كتسمية شعبية للبناء، وفي كافة بلاد الشام ومصر تطلق كلمة سرايا على المباني والقصور الحكومية، و"سرايا" (Saraya) كلمة تركية من أصل فارسي ومفردها (ساري) وتعني "دار الحكام" أو"دار الحكومة" . وقد استخدم المصطلح من قبل العثمانيين بمعنى "المقر السلطاني"، "مجموعة القصور السلطانية". وفي الفارسية تطلق اصطلاحا على بلاط الملك، مثل طوب قوبي سرايا، بلدز سرايا؛ أنظر سامي ١٨٩٩، ص ٧١٤؛ الانسي ١٩٠٠، ص ٢٩٢؛ شقيرات ٢٠٠٣، ج٢، ص ٣٠٨؛ شير ١٩٩٠، ص ٩١.

٢. أجريت الدراسة الميدانية للنقش خلال المدة ٨/٤ - ١١/٣٠، ٢٠٠٧.

٣. أحمد باشا الجزار (١١٤٨ - ١٢١٩ هـ = ١٧٣٥ - ١٨٠٤ م)، وهو أحد رجالات الدولة العثمانية في بلاد الشام الذين اشتهروا بالكفاءة والمقدرة والجبروت. أصله بشناقي (من بلاد البشناق= البوسنة)، عين واليا على صيدا في عام ١١٨٩ هـ = ١٧٧٥ م وشارك في القضاء على الإمارة الزيدانية في جنوب بلاد الشام. تولى ولاية الشام لأربع مرات خلال الفترة ١١٩٣ - ١٢١٩ هـ = ١٧٨٣ - ١٨٠٤ م. كما تولى إمارة الحج الشامي عدة مرات وتمكن بمساعدة الأسطول الانجليزي من إيقاف الزحف الفرنسي بقيادة نابليون على بلاد الشام عام ١٢١٤ هـ = ١٨٩٩ م. توفي عام ١٢١٩ هـ = ١٨٠٤ م. بعد حياة عاصفة وعمر ناهز التسعين عاما وله العديد من الآثار في مدينة عكا. أنظر: شقيرات ١٩٩٢، ص ٢٣٥؛ شهاب الدين (١٩٥٥)، ص ص ٣٧-٤٢؛ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ج١، ص ص ٩٣-٩٤؛ رافق ١٩٦٨، ص ص ٨٧- ٣٩٥.

٤. أنظر: شهاب (١٩٥٥)، ص ص ٦٣، ١٩١؛ شقيرات ١٩٩٢، ص ٢٣٥.

٥. أحمد بن ظاهر العمر الزيداني توفي بعد ١١٨٩ هـ = ١٧٧٥ م، وهو أمير لواء عجلون العثماني خلال الفترة ١١٨٤ - ١١٨٩ هـ = ١٧٧٠ - ١٧٧٥ م وعين في عام ١١٧٥ هـ = ١٧٦١ م حاكما لقلعة دير حنا شمال فلسطين، وقام بالعديد من الحملات العسكرية على بلاد عجلون، وبعد تعيينيه أميرا على عجلون اتخذ من قرية تبنه مركزا للواء عجلون وأقام فيها مجموعة من الأبنية لممارسة الإدارة والحكم وضبط الأمن في اللواء وما زالت آثارها باقية حتى اليوم، وبقيت تبنه مركز اللواء لغاية عام ١١٨٩ هـ = ١٧٧٥ م، حين انهارت الإمارة الزيدانية في عكا وسقطت تبنه في السنة نفسها، وترك أحمد بن ظاهر العمر القرية وتقول بعض المصادر أنه غادر إلى استنبول وعاش بقية حياته فيها. أنظر: شقيرات ١٩٨٨، ص ص ٤٩-٥٣؛ ابن الصديق (١٩٨٨)، ص ٣٢؛ شقيرات د. ت، ص١٤؛ (Cohen 1973)، ص ص ٤٦-٤٧.

بعد اتخاذ اربد مركزا للواء عجلون العثماني أنشأت أولى الأبنية العثمانية فيها على السفح الجنوبي من تل اربد، وقد أقيم على أنقاضها لاحقا المبنى الحالي لبلدية اربد[٦] وكانت تعرف باسم "قلعة اربد" أو "الشونة"، وهي التي تحدث عنها الرحالة بيركهارت عندما زار المدينة عام ١٢٢٧ هـ = ١٨١٢ م ووصف بيوتها وذكر بأن هناك قلعة تقع على التل في حين أن البلدة تقع عند السفح[٧]. البناء المقصود هنا هو القلعة التي استخدمتها القوات المصرية أثناء وجودها في بلاد الشام خلال الفترة ١٢٤٨ – ١٢٥٦ هـ = ١٨٣٢ – ١٨٤١ م[٨]. وكما تشير الوثائق المصرية فإن أجزاء هامة من هذه القلعة قد دمرت ولم تعد صالحة للاستخدام الرسمي أثناء ثورة الفلاحين الثانية في حوران وعجلون عام ١٢٥٥ هـ = ١٨٣٩ م[٩]، بحيث لم تتمكن الإدارة العثمانية من استخدامها بعد عودتها إلى لواء عجلون بشكل فعلي. وفي عام ١٢٦٤ هـ = ١٨٤٨ م، وعلى اثر وقوع معركة وادي العرب أو واقعة السعدي[١٠]، أيقنت الدولة العثمانية خلال الفترة ١٢٦٧ – ١٢٧٢ هـ = ١٨٥١ – ١٨٥٥ م بأنه لابد من إقامة قلعة جديدة في مدينة اربد مخصصة للاستخدام العسكري ترابط فيها حامية عسكرية عثمانية لحفظ الأمن واستتبابه في لواء عجلون، وقد جاء هذا الأجراء بعد مجموعة من الأعمال العسكرية التأديبية ضد القبائل البدوية في اللواء[١١]، وشرعت الإدارة العثمانية في إقامة بناء جديد "ربما يكون بعيدا عن القلعة القديمة"، وقد أنجز البناء حوالي (١٢٧٢ هـ = ١٨٥٥ م) وقام بالأشراف عليه "سنان باشا"[١٢]، وهو أحد قادة الجيش الخامس العثماني المرابط في ولاية الشام وبمساعدة فرقة من الجنود العثمانية، وعرف البناء الجديد باسم قلعة اربد أيضا، أو قلعة اربد الثانية تفريقا لها عن قلعة اربد القديمة[١٣]. وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن القلعة لم تكن جيدة والعناية بها لم تكن كافية[١٤]، مما أدى إلى تركها وإقامة مبنى "سرايا اربد" كدار للحكومة العثمانية في أواخر عهدها.

إقامة السرايا الحكومية في اربد

جاءت إقامة بناء "سرايا اربد" نتيجة للتوسع الإداري العثماني في قضاء عجلون بعد تطبيق التنظيمات العثمانية وتأسيس قضاء عجلون الجديد في ١ محرم ١٢٨٣ هـ = ١٦ أيار ١٨٦٦ م[١٥] ضمن لواء حوران في ولاية سوريا. وبدأت الدولة العثمانية في عهدها الجديد تتوسع في الاستخدامات الإدارية وإيجاد عدد من المؤسسات والهيئات الرسمية في قصبة اربد "مركز القضاء"، ولم تعد تلك القلعة أو "السرايا القديمة" قادرة على تلبية متطلبات الإدارة الجديدة، فكان لا بد من بناء جديد لدار الحكومة في قصبة اربد، ولكن قبل الحديث عن تاريخ بناء السرايا والمراحل المتعددة التي مرت بها، لابد من التعرض للموقع الذي أقيمت عليه هذه السرايا.

موقع السرايا

توجد عدة آراء حول الأساس الذي أقيمت فوقه دار الحكومة العثمانية في اربد، ويرى امجد البطانية أن مبنى السرايا أقيم على أنقاض برج أو قلعة قديمة كانت فوق التل، والدليل على ذلك سماكة الجدران التحتية لأساس الجدران، ويؤيد ذلك بقوله أنه "ليس للمبنى طراز معماري محدد ولا يرجع إلى فترة بناء واحدة وهذا واضح ... من حيث استخدام تقنيات وعناصر معمارية ومواد بناء وسماكات مختلفة للجدران"[١٦]. غير أن صالح التل في مذكراته يذكر بعض الإشارات حول القلعة الرومانية حين يقول أن في اربد تلاً مرتفعاً تحاط به بنيان معمرة وهي قلعة رومانية[١٧]، ولكنه لم يتحدث عن مصير تلك القلعة ومدى علاقتها بموقع السرايا الحكومية، وبذلك لا نستطيع تأكيد ما ذهب إليه البعض في كتاباتهم حول موقع تلك القلعة، حيث لم تجر حفريات أثرية واسعة حول دار السرايا للتحقق من صحة تلك الافتراضات، كما انه لا توجد أي دراسة توثيقية حول هذا الموضوع.

لهذا يمكن القول أن "سرايا اربد" بنيت على أنقاض القلعة القديمة "الشونة" أو بالقرب منها، للاستفادة من الأنقاض في البناء الجديد من حيث الأساسات والحجارة وغيرها.

٦. الطوالبة ١٩٨٢، ص ٥٢.
٧. بيركهارت (١٩٦٩)، ص ٤٧٣.
٨. أنظر: شقيرات ١٩٩٢، ص ص ٣٢–٣٨.
٩. أنظر: رستم ١٩٣٤، محفظة ٢٥٨، رقم ١٤٨–١٥٧؛ شقيرات ١٩٩٢، ص ٣٥.
١٠. أنظر: موسى والماضي ١٩٥٩، ص ٤؛ بيك ١٩٣٤، ص ٢٥١، نقلا عن شوماخر في كتابه عجلون الشمالية.
١١. أنظر: بعض الوثائق العثمانية في سوريا ضمن كتاب ريجنكوف وآخرون ١٩٩٣، ص ص ٤١٠–٤١٤ وهناك مجموعة من الوثائق العثمانية حول هذا الموضوع في الأرشيف العثماني (استنبول).
١٢. سنان باشا: لا بد هنا من الإشارة إلى أن سنان باشا المقصود هنا يختلف تماما عن المهندس المعماري العثماني المعروف "معمار سنان" صاحب المدرسة العثمانية العريقة، وكان رئيس المعماريين في عهد السلطان سليمان القانوني وقام ببناء العديد من الجوامع السلطانية والأبنية الرسمية الأخرى في استنبول وغيرها وقد عاش خلال الفترة (٨٩٤– ٥٨٦ هـ = ١٤٨٩ – ١٥٧٨ م)، أما سنان باشا المعنى هنا في هذه الدراسة فكان أحد قادة الجيش العثماني الخامس المرابط في الشام وكان احد رجالات الدولة العثمانية في زمن السلطان عبد العزيز وقد توفى في حوالي (١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م؛ أنظر سامي ١٨٨٩ – ١٨٩٨، ج٤، ص ٢٦٣٤؛ المنجد في اللغة والأعلام ١٩٩٢، ص ٣٠٩؛ شقيرات ٢٠٠٣، ج١، ص ص ٤٠٨، ٤١٨، ٥٣٠؛ (Serto ğlu 1986)، ص ٣١٧؛ (خلافا لما يذكره (Lenzen and Knauf 1988)، ص ص ٢٤٢–٢٤٣، هو أيضا ليس سنان باشا الذي احتل مناصب رفيعة في الدولة والجيش في أواخر القرن السادس عشر وكان حاكم دمشق للأعوام ١٥٨٨ و١٥٨٩ وأنشأ مسجدا يحمل اسمه في المدينة عام ١٥٩١، حول الأخير أنظر (Gaube 1978)، ص ١٨٧؛ خالد الناشف).
١٣. شقيرات ١٩٩٢، ص ١٠٥.
١٤. أبو الشعر ١٩٩٥، ص٤٧٦.
١٥. انظر: سوريا، رقم ٩١٥، مايس٢٤ عام ١٨٨٤ م.
١٦. مقابلة مع المهندس أمجد البطاينة في ٢٠٠٧/٩/١٤؛ البطاينة ٢٠٠١، ص ٦٧؛ ٢٠٠٧، ص ص ٨–١٤.
١٧. أنظر: مذكرات صالح التل عند العبادي ٢٠٠٤، ص ١٣١.

تاريخ بناء السرايا

لم تعد السرايا القديمة صالحة للاستخدام الرسمي في إطارها الجديد، ومع التوسع في الاستخدامات الإدارية وإيجاد عدد كبير من المؤسسات والهيئات الرسمية في قصبة اربد، باشرت الإدارة العثمانية، وبأمر من والي سوريا أحمد حمدي باشا، بتاريخ ٢٩ رجب ٣٠٠ هـ = ٢٤ مايس ١٢٩٩ مالية = ٥ حزيران ١٨٨٣ م[١٨]، في إنشاء بناء جديد لدار الحكومة في محل مرتفع، حيث جعلت الطبقة السفلي اصطبلا يتسع لمائة حصان، على أن تباع الدار القديمة، وتعمر الجديدة بأثمانها، وأعدت المخططات الهندسية للبناء الجديد وسلمت للقائمقام لإجراء اللازم[١٩]. وهناك إشارات واضحة إلى إهمال وتعطيل أعمال البناء في دار السرايا خلال الفترة ١٣٠١ – ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٤ – ١٨٨٥ م، حيث توقفت أعمال ترميم البركة أيضا[٢٠]. إلا انه أعيد العمل في البناء مع تعيين قائمقام جديد لقضاء عجلون هو حسين عوني بك شركس، واستمرت عملية البناء حتى الانتهاء من المرحلة الأولى في شهر صفر ١٣٠٤ هـ = تشرين الثاني ١٨٨٦ م، حيث قدم أهالي قصبة اربد إعانة مالية مقدارها أربعماية ليرة من تكاليف البناء، ثم بدأت الأجهزة الرسمية العثمانية في استخدامه[٢١].

المرحلة الثانية جاءت تلبية لحاجة التوسع الإداري العثماني في القضاء، ففي عام ١٣١٠ مالية = ١٨٩٥م شرعت الإدارة العثمانية في بناء المرحلة الثانية من دار السرايا، ويبدو أن هذه المرحلة شملت الجزء العلوي من السرايا، وقد كلف محمد أفندي الحمود للإشراف على أعمال البناء في هذه المرحلة[٢٢]. وقد شكلت لجنة لتعمير سرايا اربد وبناء السجن في القصبة، وذلك بقرار من متصرف لواء حوران بدري باشا[٢٣]، واعتمده قائمقام قضاء عجلون موسى كاظم بك[٢٤]. وفي ١١ كانون الثاني ١٣١٠ مالية = ٢٣ كانون الثاني ١٨٩٥ م، عين محمد أفندي الحمود للإشراف على أعمال هذه المرحلة، التي يبدو أنها شملت الجزء العلوي ("الطابق الثاني") من الجزء الشمالي الغربي من السرايا، وبهذا الصدد يذكر ضيف الله الحمود أن محمد الحمود وفي أثناء بناء "دار الحكومة" والسجن في اربد، كان يجري حسابات دقيقة على رؤساء الورش وفرق العمل وعمالها ويقف على الصغيرة والكبيرة من مواد البناء التي تصرف، وقد شكلت لهذه الغاية أكثر من لجنة فرعية، وكان يقوم بالتدقيق اليومي على المقاولات والحجارة، والجص، والكلس وغيره، وكان رئيس اللجنة لا يوقع على أي مستند أو كشف لمطالبات دون القناعة بصحة القيود والصرفيات[٢٥] ومن الواضح أن ضيف الله الحمود يحتفظ بوثائق وسجلات ودفاتر تلك اللجنة وأعمال البناء والإنشاءات، حيث يقول "وهناك العديد من صور الإجراءات اليومية التي كانت تجري بهذا الصدد"[٢٦].

"شرعت الإدارة العثمانية في إقامة بناء جديد "ربما يكون بعيدا عن القلعة القديمة"، وقد أنجز البناء حوالي (١٢٧٢ هـ = ١٨٥٥ م) وقام بالأشراف عليه "سنان باشا"، وعرف البناء الجديد باسم قلعة اربد أيضا، أو قلعة اربد الثانية تفريقا لها عن قلعة اربد القديمة، وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن القلعة لم تكن جيدة والعناية بها لم تكن كافية، مما أدى إلى تركها وإقامة مبنى "سرايا اربد" كدار للحكومة العثمانية في أواخر عهدها"

١٨. والي سورية لمرتين، الأولى (١٢٩٢ هـ = ١٨٧٥ – ١٨٧٦ م)، والثانية (١٢٩٦ – ١٣٠١ هـ) = ١٨٨٠ – ١٨٨٥ م) وفي هذه الفترة من عهده تمت المباشرة في بناء المرحلة الأولى من سرايا اربد: أنظر جريدة سوريه العدد ٩١٥ بتاريخ ٢٤ مايس ١٢٩٩ مالية = ٢٩ رجب ١٣٠٠ هـ = ٥ حزيران ١٨٨٣م؛ أبو الشعر ١٩٩٥، ص ص ٤٧٥–٤٧٦؛ شقيرات ١٩٩٢، ص ص ٢٣٩–٢٤٠؛ (Öztuna 1990/ 2)، ص ١١٤٧.

١٩. أنظر: أبو الشعر ١٩٩٥، ص ٤٧٦.

٢٠. أنظر: أبو الشعر ١٩٩٥، ص ١٨١؛ الجالودي ١٩٩٦.

٢١. حسين عوني بك، قائمقام قضاء عجلون، أنظر أدناه التعليق على الجزء الثاني من نقش دار السرايا؛ أنظر: مجهول ١٨٨٦، ص ٤٠٧.

٢٢. محمد أفندي الحمود الخصاونة (١٢٦٧ – ١٣٤٧ هـ = ١٨٥٠ – ١٩٢٩ م كان أحد مشايخ الزعامات المحلية في ناحية بني عبيد وفي قضاء عجلون العثماني، أحد أبناء بلدة إيدون، وكان أول رئيس لبلدية اربد خلال الفترة ١٣٠٠ – ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٣ – ١٨٨٧ م، وقد تولى العديد من المناصب الرسمية العثمانية وشارك في عدد كبير من اللجان والهيئات العثمانية، بما ذلك لجنة الإشراف على أعمال بناء المرحلة الثانية من السرايا، أنظر: شقيرات ٢٠٠٧، ص ص ٨–١٠؛ الحمود ١٩٩٩، ص ص ٢٠٣–٢٠٤.

٢٣. بدري باشا: متصرف لواء حوران لفترتين، الأولى خلال السنوات ١٣٠٣ – ١٣٠٥ مالية = ١٨٨٧ – ١٨٨٩ م، والثانية خلال السنوات (١٣١١ مالية = ١٨٩٤ – ١٨٩٦ م، أنظر: شقيرات ١٩٩٢، ص ٩١.

٢٤. موسى كاظم بك الحسيني (١٢٧٠ – ١٣٥٣ هـ= ١٨٥٣ – ١٩٣٤ م)؛ ولد في القدس وتعلم بها، التحق في معهد الحقوق في استنبول وتخرج منه، كان يتقن اللغتين التركية والفرنسية بالإضافة إلى العربية، وقد عين قائمقام لقضاء يافا، صفد، عكار، عجلون، ثم متصرفا للواء عسير، وتولى لواء حوران مرتين، وغيرها وقد أحيل على المعاش في عام ١٣٣٤ هـ = ١٩١٤، وبعدها ترأس بلدية القدس في عام ١٣٣٦ هـ = ١٩١٧ م، وبعد انتهاء العهد العثماني، ترأس الحركة الوطنية الفلسطينية ضد القوات الانجليزية واليهودية منذ عام ١٣٣٩ هـ = ١٩٢٠ م وحتى وفاته بعد تعرضه للضرب بشدة من قبل جنود الإحتلال البريطاني في إحدى مظاهرات التي كان يقودها في يافا، أنظر: شقيرات ١٩٩٢، ص ١٣٤، ج٧، ص ص ٣٢٦–٣٢٧؛ طربين ١٩٩٠، ص ص ١٠٣٤–١٠٣٥؛ الخالدي ١٩٨٨، ص ٧٨، ١١٠ (صورة ١١١)، ص ١١١ (صورة ١١٢).

٢٥. انظر: الحمود ١٩٩٩، ص ٢٠٤.

٢٦. المصدر السابق.



شكل ٢. دار السرايا: البوابة الجنوبية. النقوش العثمانية

النقوش العثمانية (شكل ٢)

يعلو المدخل الجنوبي لدار السرايا نقش حجري يتكون من ثلاثة أجزاء ومكتوب باللغة العربية، لكنه متأثر باللغة العثمانية، علما بأن هذا النقش لا يمثل أقدم فترة بناء للسرايا، ولكنه يؤرخ بإتمام المرحلة الأولى من البناء التي يرجع تاريخها إلى عام ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ - ١٨٨٧ م. وتفاصيل النقش هي كما يلي:

الجزء الأول: نقش الطغراء (شكل ٣)

الطغراء تعني بشكل عام التوقيع أو الشعار الرسمي العثماني[٢٧]. والنقش هنا هي الطغراء العثمانية الخاصة بالسلطان عبد الحميد الثاني. وقد أخذ العثمانيون التوقيع عن العباسيين وربما عن المماليك. وقد بدأ استعمال الطغراء في الدولة العثمانية منذ عهد السلطان اورخان الأول في القرن الثامن هجري = ١٤ م. وأصبحت الطغراء بمرور الزمن لدى الدولة العثمانية شعارا يحمل اسمها. وكانت تنفذ بشكل متداخل ومنمق بطراز فني جيد[٢٨]. وخصصت لها دائرة في الديوان السلطاني يرأسها موظف يعرف "بالنشانجي"[٢٩]. وبعد ذلك غير مسمى "النشانجي" إلى "الطغراء كش"[٣٠]. وأصبحت الطغراء توضع على كافة الأوامر العالية والفرمانات السلطانية والوثائق الرسمية والطوابع وصحف الأوراق المدموغة، وشعارات الجيش والأسطول العثماني، وعلى المسكوكات الذهبية والفضية العثمانية وغيرها. وكانت تنقش على كل بناء شيد في عهد السلطان[٣١].

من الناحية الفنية، لا يختلف نقش الطغراء الموجود على بوابة سرايا اربد، في إطاره الفني العام، عن طغراء السلطان عبد الحميد الثاني الكتابية الموجودة على الوثائق والمستندات وعلى مداخل المباني العثمانية الأخرى في استنبول والولايات الأخرى، وهي بدورها لا تختلف أيضا عن الطغراء العثمانية العامة، واعتبرها بعض الباحثين نوعا من أنواع الفن الزخرفي العثماني التركي[٣٢]. لكن بعض الباحثين العرب في مجال الخط العربي اعتبر أن الطغراء وتصميمها نوع من أنواع الخط العربي[٣٣].



شكل ٣. نقش الطغراء

٢٧. أنظر: شقيرات ٢٠٠٣، ج١، ص ١٤٢.
٢٨. دائرة المعارف الإسلامية د. ت، ج١٥، ص ص ٢٠٣-٢٠٤.
٢٩. أنظر المصدرين السابقين.
٣٠. أنظر: شقيرات ٢٠٠٣، ج١، ص ١٤٢.
٣١. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية د. ت، ج١٥، ص ٢٠٣.
٣٢. حول فن الطغراء أنظر: شقيرات ٢٠٠٣، ج١، ص ١٤٢؛ دائرة المعارف الإسلامية د. ت، ج١٥، ص ص ٢٠٣-٢٢٣؛ بهنسي ١٩٩٥، ص (ق)، ٧٣؛ كركوكي ١٩٨٠، ص ٤٧٧؛ يعقوب ١٩٨٦، ص١٦٠؛ البابا ١٩٨٣، ص ص ١٤٦-١٤٧، (Emino ğlu 2003)، ص ص ٢١٣-٢٢٥؛ (Ümur 2003)، ص ص ٣-٣٠.
٣٣. أنظر: يعقوب ١٩٨٦، ص ص ١٦٠-١٦١

الميزات الفنية للطغراء العثمانية

من ناحية الشكل فإن الطغراء العثمانية مشتقة من النموذج السلجوقي ولكنها تختلف اختلافا واضحا عن الطغراء المملوكية المصرية في المظهر، فقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الطغراء العثمانية ليست مجرد أسلوب للكتابة متعارفا علية فحسب، بل جاءت على شكل طائر، أو فارس ينهم الأرض نهما[٣٤]، أو على شكل دلة قهوة[٣٥]، أو على شكل راحة اليد[٣٦].

إن الحروف الرأسية وعددها ثلاثة قد أخذت من اسم وألقاب السلطان وأبيه، ويرى الباحثان بأن تلك الحروف الرأسية تمثل "التوغ العثماني"[٣٧]، أي إشارة إلى الأعلام العامة التي تمثل السلطان وهي شارة السلطنة العثمانية المائية التي تعرف أيضا بالعلم والراية.

الأقواس البيضاوية أو الاهليجية غير المغلقة، وعددها اثنان، يتلاقيان في الجزء السفلي من اسم السلطان وأبيه، كانت أصلا امتدادات لحروف النون، وهي ما يرد في لفظي "بن" أو "خان"[٣٨].

وصف النقش

تقع الطغراء السلطانية أعلى البوابة الجنوبية للسرايا، قريبا من القوس العلوي للبوابة، وقد نفذت بطريقة الحفر البارز المفرغ داخل إطار دائري فوق حجر جيري منتخب مستطيل الشكل طوله: ٦٣,٥ سم وعرضه: ٢١,٥ سم وعلى دائرة بارزة بلغ قطرها ١٨,٥ سم؛ وبلغت سماكة حفر الدائرة: ٢ سم، الدائرة غير منتظمة تماما من الناحية الهندسية، بل فيها بعض الإزاحات، ولم نتمكن من معرفة اسم الخطاط الذي قام بكتابة هذه الطغراء، ولكنها بشكل عام تشبه طغراء السلطان عبد الحميد الثاني **(شكل ٤)**، التي كان يقوم بكتابتها الخطاط العثماني الشهير محمد سامي[٣٩] ، كذلك لم نعرف اسم النقاش أو الحجار الذي قام بنقش الطغراء على الحجر، ولكننا نرى أن هذا النقش نُفّذ في دمشق الشام، مركز الولاية، لوجود الخطاطين والحرفيين الذين يجيدون هذه الصنعة فيها، في وقت لم تعرف فيه إربد هذا الفن.

جاءت طريقة نقش الطغراء معقدة، وفيها الكثير من عدم وضوح الحروف المكونة للكلمات، بحيث يصعب، على غير الباحث أو المختص، قراءة نصوصها بيسر وسهولة.

نص النقش

تكونت كلمات نقش الطغراء الموجودة فوق بوابة سرايا اربد من العبارة التالية:

"عبد الحميد خان بن عبد المجيد المظفر دائما"

يتألف هذا النص من ثماني كلمات وأربعة وثلاثون حرفا وحركة خطية واحدة جاءت لتكملة الشكل العام للطغراء[٤٠]، عبد الحميد = تسعة حروف، خان = ثلاثة حروف، بن = حرفان، عبد المجيد = تسعة حروف، خان = ثلاثة حروف، المظفر = ستة حروف، دائما = خمسة حروف، وحركة لتكملة الشكل.

القراءات السابقة للنقش

بالرغم من الدراسات السابقة التي تناولت دار السرايا في اربد، إلا أنه ليس هناك اي قراءة لهذا النقش، فأمجد البطانية أشار إلى وجوده ("شعار الدولة العثمانية") دون قراءته ويتكلم عن "وجود نقش في أعلى المدخل الجنوبي الرئيسي للمبنى يحوي كتابة عربية"[٤١]. وعليه يمكن القول بأنه لم يعثر على قراءات سابقة تناولت نقش الطغراء السلطانية الموجودة على بوابة سرايا اربد العثمانية.

الملاحظات حول النقش

بصورة عامة، يمكن القول إن نقش الطغراء نسخة شبه غامضة من طغراء السلطان عبد الحميد الثاني، وهناك تشابه من ناحية الشكل العام بين النقش والنقوش الأخرى للطغراء الموجودة على المباني العثمانية الأخرى، مثل ذاك الموجود في مدرسة اربد الرشيدية، ويشبه بشكل أوضح الطغراء فوق بوابة المدرسة الرشيدية العسكرية في اسطنبول في حي السيركجي حيث توجد كافة التفاصيل الفنية ويمكن قراءته بسهولة تامة[٤٢].

٣٤. أنظر: كركوكي ١٩٨٠، ص ٤٧٧.
٣٥. أنظر: يعقوب ١٩٨٦، ص ١٦٠.
٣٦. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية د. ت، ج١٥، ص ٢٠٨.
٣٧. توغ أو التوغ العثماني: مصطلح من أصل فارسي ويعني الضمة من شعر الخيل أو ذيل الحصان، أو الإشارة الخاصة، وقد استخدم هذا المصطلح بمعنى الشارة الخاصة للسلطنة العثمانية ومكانتها تقارب مكانة العلم أو الراية، وكانت هذه الشارة عبارة عن ضم عدد من شعرات الخيل أو ذيل الحصان المركب على الرمح ويصبغ باللون الأحمر، حيث يمثل السلطان تسعة أتواغ ولكن في الطغراء ثلاثة حروف على شكل توغ، وقد استخدم هذا المصطلح وهذه الشارة على نطاق واسع للدلالة على أصحاب الرتب والمسؤولين في الدولة العثمانية ، أنظر: شقيرات ٢٠٠٣، ج١، ص ١٤١؛ دائرة المعارف الإسلامية د. ت، ج١٥، ص ص ٢١٠، ٢١٩؛ سامي ١٨٩٩، ص ٤٥٢.
٣٨. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية د. ت، ج١٥، ص ص ٢٠٧-٢١٠.
٣٩. الخطاط محمد سامي أفندي (١٢٥٤ – ١٣٣٠ هـ = ١٨٣٨ – ١٩١٢ م): هو ابن الحاج محمود أفندي ومن أشهر الخطاطين الأتراك خلال القرن ١٣ هـ = ١٩ م، وهو تلميذ الخطاط الشهير راقم، الذي يعتبر أشهر خطاطي الطغراء في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وقد أخذ الخط الديواني وجلي الديواني (خط عثماني مطور عن الخط الديواني العربي) والطغراء عن ناصح أفندي، وأخذ التعليق عن إسماعيل حقي القبرصلي، واشتهر ببراعته بالخطوط المذهبة، وقد تخرج على يده العديد من الخطاطين المشهورين. أنظر: بهنسي ١٩٩٥، ص ٧٣؛ كركوكي ١٩٨٠، ص ١٦٠.
٤٠. أنظر: (Emino ğlu 2003)، ص ص ٢١٥-٢٢٥.
٤١. البطاينة ٢٠٠١، ص ص ٦٧ – ٦٨. كذلك البطاينة ٢٠٠٧ لم يشر إلى وجود مثل هذا النقش.
٤٢. معاينة الباحثين لتلك المدرسة بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٢١.



شكل ٤. صورة عن طغراء السلطان عبد الحميد الثاني رسمها الخطاط سامي

الأعلام الواردة في النقش

أ) السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٥٨ – ١٣٣٨ هـ = ١٨٤٢ – ١٩١٨ م) وهو السلطان العثماني الرابع والثلاثون، وقد تولى عرش الدولة العثمانية خلال الفترة ١٢٩٣ – ١٣٢٧ هـ = ١٨٧٦ – ١٩٠٩ م ودام حكمه ثلاثة وثلاثون عاما وسبعة أشهر وثلاثة أيام ميلادية، هو ابن السلطان عبد المجيد الأول ووالدته ثيري موزكان ثادف أفندي وقد استطاعت الدولة في عهده أن تفرض سيطرتها على كافة أنحائها، وهيمن السلطان عبد الحميد الثاني على مقاليد الحكم والإدارة في العاصمة والولايات، ورغم أن الدولة في عهده كانت قوية الهيبة والنفوذ، إلا أنها بدأت تتعرض لمؤامرات من الدول الأوروبية، ما أدى إلى خلعه من قبل جمعية الاتحاد والترقي في ٧ ربيع الآخر ١٣٢٧ هـ = ٢٧ نيسان ١٩٠٩ م وأرسل إلى سالونيك في اليونان وعذب، وبقي سجينا بقصر الآلايتني حتى سقطت المدينة عام ١٣٢٩ هـ = ١٩١١ م، فأعيد إلى سرايا بكربكي في استنبول، وبقي معزولا فيها حتى وفاته، ودفن في ضريح السلطان محمود في محلة جنبرالي طاش في استنبول، وبكى عليه ألد أعدائه[٤٣].

ب) السلطان عبد المجيد الأول (١٢٢٨ – ١٢٧٧ هـ = ١٨٢٣ – ١٨٦١ م) وهو السلطان العثماني الحادي والثلاثون، والد السلطان عبد الحميد الثاني، وقد تولى الحكم خلال الفترة ١٢٥٥ – ١٢٧٧ هـ = ١٨٣٩ – ١٨٦١ م، وحدثت في عهده تطورات كثيرة في مجال الإصلاح في الجيش والإدارة والمعارف وفتحت المدارس المهنية، وأسست خطوط البرق والسكك الحديدية وغيرها، توفي بداء السل مثل والده السلطان محمود الثاني، ودفن في حظيرة جامع السليمية في منطقة الفاتح في استنبول[٤٤].

الألقاب الواردة في النقش

أ) خان: هو أحد الألقاب الرسمية للسلطان العثماني، وأصله فارسي ويعني: الأمير، الحاكم، الحاكمدار، وقد اتخذه الملوك التيموريون في القابهم الرسمية، كما اتخذ السلاطين العثمانيون هذا اللقب والحق بصفتهم الرسمية، حيث نجد أن السلطان عثمان الأول اتخذ لقب "سلطان عثمان خان غازي". وبقي مستخدما من قبل السلاطين العثمانيين حتى نهاية الدولة العثمانية خاصة في الطغراء السلطانية[٤٥].

٤٣. حول المعلومات عن السلطان عبد الحميد الثاني، انظر: دودو أوغلو ١٩٩٠، ص ٨٣؛ زامباور ١٩٥٢، ص٢٤٠؛ أوزتونا ١٩٩٠، ج٢، ص١٨٤؛ شقيرات ٢٠٠٣، ج٢، ص ص ٢٦٠–٣٢٩؛ هناك مصادر ومراجع كثيرة باللغة التركية، منها: (Başbakanlık Osmanlı Arşivi 1995)، ص ٣١٧؛ (Öztuna 1990/2)، ص ٣٧٢.

٤٤. حول السلطان عبد المجيد أنظر: أوزتونا ١٩٩٠، ج٢، ص ص٢٤–٥٣؛ دودو أوغلو ١٩٩٠، ص ٧٨؛ دحلان ١٩٩٧، ص٢٨٤؛ زمباور ١٩٥٢، ص٢٤٠؛ شقيرات ٢٠٠٣، ج٢، ص ٨٠؛ (Başbakanlık Osmanlı Arşivi 1995)، ص ٣٠٣؛ (Öztuna 1990/2)، ص ٣٦٨.

٤٥. أنظر: سامي ١٨٩٩، ص ص ٥٧٠–٥٧١.

ب) المظفر: وهو أيضا من ألقاب السلطان العثماني، وقد اتخذ السلاطين العثمانيون هذا اللقب ملحقا لألقابهم الأخرى حيث نجدهم يستخدمون مصطلح "المظفر دائما" أي المنصور دائما، خاصا في الطغراء السلطانية[٤٦].

خصائص الخط الفنية للنقش

خط الطغراء هو تزاوج بين خطي الديواني والإجازة، ويتميز بقوة التناسب وبزيادة عرض سن القلم عن خط الديواني العادي، وهذا ما ينطبق على خط الطغراء الورقية، أما في حالة نقش الطغراء على الحجارة، فقد يختلف الوضع قليلا أو كثيرا حسب مهارة ودقة النقاش الذي يقوم بنقل الطغراء على الحجارة، وفي كثير من الأحيان لا نجد اختلافا بين الطغراء الورقية والحجرية في العاصمة استنبول نتيجة لوجود عدد كبير من النقاشين المهرة في تلك الأعمال، بينما نجد ذلك الاختلاف واضحا في الولايات العثمانية البعيدة عن استنبول، وبالنسبة للطغراء العثمانية الموجودة بباب سرايا اربد، فإنها كتلة خطية منقولة على حجر[٤٧].

الجزء الثاني: نقش تأسيس دار السرايا

نقش حجري **(شكل ٥، ٦)** يتألف من أربعة أبيات شعرية عمودية باللغة العربية مع استخدام بعض المصطلحات العثمانية، وناظم هذه الأبيات الشعرية كان مراعيا لقواعد النحو والصرف والعروض العربية، وجاءت سليمة لغويا وخالية من اللحن وهي على بحر الوافر، وقد انتقيت الكلمات الشعرية بعناية، وتألف كل بيت شعري من شطرين "صدر وعجز" مع مراعاة القافية، وهي الألف الممدودة. يتحدث النقش عن تأسيس دار السرايا ويتضمن



شكل٥. دار السرايا، إربد: النقش العربي والتاريخ

يتألف نص نقش تأسيس السرايا الحكومية في اربد من أربعة أبيات شعرية وهذه الأبيات هي:

خليفتنا عبد الحميد الذي خزا — دعا راشدا والي الولاية حرزا
فكلف بهراما بصام فكره — (-------) الرغيد مركزا
فقام حسين في رصانة وضعه — فأتقنه صنعا قمرا مطرزا
وأرض الطيبي يشير بحده — انه حال سكان البلاد تميزا



شكل ٦. تفريغ النقش العربي والتاريخ

مدحا واضحا لشخص رئيس الدولة العثمانية: "السلطان"، ثم والي الولاية ومتصرف اللواء وقائمقام القضاء.

وصف النقش الكتابي

شكل النقش: نفذ نقش الأبيات الشعرية الأربع تحت الطغراء السلطانية وفوق البوابة الجنوبية للسرايا. كتب النقش بخط الثلث بطريقة الحفر البارز المفرغ، أو النفر، وعلى حجر جيري منتخب، وهو حجر مربع الشكل تقريبا طوله: ٥١,٥ سم، وعرضه: ٤٣,٣ سم. كتبت أسطر النقش متتالية، وطول السطر الكتابي: ٥,٤٦ سم، وعرضه ٧ سم، ومتوسط عمق الحفر ٢-٣ ملم، وطول الخط الفاصل بين الأبيات الشعرية: ٥,٤٦ سم.

توزعت الأبيات الشعرية على القاعدة الحجرية بطريقة هندسية، أفقيا وعموديا، فقد وزعت أفقيا على أربعة خطوط أو سطور هندسية متساوية، ويشمل كل سطر بيتا شعريا كامل الصدر والعجز، بينما توزعت تلك الأبيات عموديا على قسمين حيث فصلت بخط واضح في وسط القاعدة الحجرية، القسم الأول شمل سطورا تمثل صدور الأبيات أما القسم الثاني فقد شمل أعجاز الأبيات الشعرية، وجاءت الكلمات مضغوطة خاصة في الشطر الأول من البيت الأول، ثم في البيتين الأخرين، ونجد تداخلا في حروف الكلمات، بحيث يصعب قراءتها أحيانا بسهولة، علما بأن ثلاث كلمات قد فقدت من عجز البيت الشعري الثاني، نتيجة لكسر جزء من الحجر الذي كان يحمل تلك الكلمات.

ما زال الأشخاص الذين قاموا بأعداد وصناعة هذا النقش مجهولين، فلم نتمكن من معرفة اسم الشاعر أو ناظم الأبيات الشعرية ولم نعرف اسم الخطاط الذي خط تلك الأبيات، ولا من نقشها على القاعدة الحجرية. ونعود لنؤكد على رأينا السابق، كما في الطغراء، بأن هذا النقش قد أعد في دمشق الشام، مركز الولاية، وللأسباب التي وردت سابقا.

٤٦. أنظر: سامي ١٨٩٩، ص ١٣٦٥.
٤٧. أنظر: بهنسي ١٩٩٥، ص (ق)، ٥٣.

الدراسة اللغوية للنقش

البيت الأول

خليفتنا: هو الخليفة حاكم الدولة العثمانية.

عبد الحميد: اسم الخليفة الحاكم.

خزا: خزا الرجل خزوا: ساسه وقهره، وخزا الدابة خزوا: ساسها وراضها، في إشارة إلى سيادة السلطان وسيطرته[٤٨].

دعا: طلب من.

راشد: اسم الوالي.

والي الولاية: لقب.

حرزا: اشتد ورعه[٤٩].

البيت الثاني

فكلف: أوكل إليه القيام بالمهمة.

بصام: من الفعل بصم: بصمه بصما طبعه فهو باصم وذاك مبصوم[٥٠].

فكره: الفكر إعمال الخاطر في الشيء، والمقصود في العبارة "بصام فكره" القدرة على معرفة ما يفكر فيه والي الولاية.

(ثلاث كلمات مفقودة)

مركزا: المركز هو المقر وفيه إشارة إلى المبنى.

البيت الثالث

فقام: القيام يفيد معنى العزم.

وضّعه: وضّع الباني الحجر نضد بعضه على بعض[٥١].

فأتقنه: فأتقن صنعته.

قمرا: شبه البناء بالقمر لبهائه وعلوه ودقة صنعه.

مطرزا: جاءت هذه الكلمة من صفات البناء ايضا لتعني الترتيب أو المرتب أو المزين، وفي السياق تعني أن البناء كان مزينا ومرتبا.

البيت الرابع

الطيبي: قارن الطوبى: اسم شجر في الجنة[٥٢].

يلاحظ أن أمر الخليفة قد نفذ بناء على التسلسل الوظيفي للمسؤولين ابتداء بوالي الولاية وانتهاء بالقائمقام.

الأعلام الواردة في النقش

ورد في النقش أربعة أعلام، أو شخصيات، لها صفة رسمية وإدارية ووظيفية:

أ) الخليفة (السلطان) عبد الحميد الثاني: ذكر بصفته رئيس الدولة العثمانية[٥٣].

ب) والي الولاية راشد باشا: ذكر باسمه "راشد" وبصفته الرسمية أو الوظيفية: هو راشد ناشد باشا وقد تولى ولاية سوريا لفترتين الأولى ١٢٩٣ هـ = ١٨٧٦ – ١٨٧٧ م، والثانية في ١٨٨٥ م واستمر في هذه الولاية حتى تم عزله في ٢٧ مارت ١٣٠٤ مالية = ٨ نيسان ١٨٨٨ م. وقد بنيت دار السرايا في هذه الفترة[٥٤].

ج) متصرف اللواء بهرام باشا: هو متصرف لواء حوران والمعروف باسم بهرام باشا وقد تولى إدارة لواء حوران خلال المدة من ١ تشرين ثاني ١٣٠٠ – ٢٩ كانون أول ١٣٠٣ مالية = ١٣ تشرين الثاني ١٨٨٤ – ٢٩ كانون أول ١٨٨٨ م، وكان يحمل رتبة ميرميران = أمير لواء، وفي عهده أنجز بناء دار السرايا[٥٥].

د) قائمقام قضاء عجلون حسين بك: هو قائمقام قضاء عجلون واسمه حسين عوني بك جركس وقد تولى القضاء ١٣٠٢ – ١٣١١ هـ = ١٨٨٥ – ١٨٩٣ م، وشيد البناء في زمنه[٥٦].

الجزء الثالث: تاريخ النقش

تاريخ النقش (تاريخ تأسيس بناء السرايا): جاء نقش التاريخ ملحقا بالأبيات الشعرية. ففي نهاية الأبيات وضمن الإطار الذي يلف القاعدة الحجرية، ذكر تاريخ إتمام بناء المرحلة الأولى (الرئيسية) للسرايا ضمن مقطعين.

الأول: كلمة "سنة" حيث كان العثمانيون يستخدمون هذه الكلمة قبل كتابة التاريخ رقما، وكثير ما نجد ذلك في معظم الوثائق العثمانية "في سنة" أو "سنة"[٥٧].

الثاني: ١٣٠٤. تعني السنة التي أقيم فيها البناء، وهي ألف وثلاثماية وأربع هجرية، فقد كانت الدولة العثمانية تعتمد التقويم الهجري، ولكن في أحيان أخرى كانت تستخدم التاريخ المالي، و١٣٠٤هـ توافق بالتقويم الميلادي ١٨٨٦ م وهو تاريخ الانتهاء من بناء المرحلة الأولى من دار السرايا، أي شهر صفر ١٣٠٤ هـ = تشرين الثاني ١٨٨٦ م[٥٨].

٤٨. أنظر: أبن منظور (١٩٥٥)، ج١٤، ص ٢٢٦.
٤٩. أنظر: أبن منظور (١٩٥٥)، ج٥، ص ٣٣٣.
٥٠. البستاني ١٩٨٧، ص ٤٢، يضيف البستاني: وهو من كلام العامة تركي الأصل.
٥١. أنظر: أبن منظور (١٩٥٥)، ج٨، ص ٣٩٦.
٥٢. أنظر: ابن منظور (١٩٩٥)، ج١٥، ص ٣.
٥٣. أنظر: الهامش رقم ٤٣.
٥٤. أنظر: شقيرات ١٩٩٢، ص ص ٢٣٩–٢٤٠؛ المنجد ١٩٤٩، ص٩٣؛ سالنامه ولاية سورية ١٩٠٠، ص ٢٨٨؛ (Öztuna 1990/2)، ص ١١٤١.
٥٥. أنظر: شقيرات ١٩٩٢، ص ٩١.
٥٦. أنظر: شقيرات ١٩٩٢، ص ١٣٣.
٥٧. أنظر: مجموعة الوثائق العثمانية عند شقيرات ١٩٩٢، ص ص ٢٨٦–٣١٤.
٥٨. أنظر: مجهول ١٨٨٦، ص ٤٠٧؛ (Unat 1984)، ص ٨٨.

الخصائص الفنية لخط النقش

على خلاف المعتاد في النقوش العثمانية، التي كانت تستخدم الخط الديواني في الكتابة والنقش تحت الطغراء، كتب هذا النقش بخط الثلث، وعند المقارنة بين حروف هذا النقش القائمة وبين الحروف التي أوردها أحمد أمين اوغلو لحرف خط الثلث بطريقة الكتابة العثمانية لهذا الخط، فإن هناك تقاربا كبيرا بين الخطين[٥٩].

يعتبر خط الثلث أصل الخطوط العربية وأجملها ويستعمل غالبا في الكتابة في المساجد والمحاريب والقباب وعناوين الكتب والصحف، وهو خط متطور عن خط النسخ، وسمي بذلك لأنه في حجم خط النسخ الكبير الذي كان يكتب به على الطومار[٦٠]، وسمي لذلك بالجليل[٦١] ليدل على صورة وسمات محدودة للحرف العربي، وهو أصغر في حجم حروفه من الطومار، وسمي الثلث لاشتقاقه من قلم الطومار بواقع الثلث عن قطعته (رأس قلم الخط) البالغة أربعا وعشرون شعرة، ولكن البهنسي يرى أن الثلث جاء مقارنة بخط النسخ، ويقول: "بمقارنة خط النسخ بالثلث، يبدو لنا أن مساحة حروفه تساوي ثلث مساحة خط النسخ"، وقد مر خط الثلث بعدة مراحل فنية، حتى وصل إلى صورته المتطورة، وأصبح اليوم من أصعب أنواع الخط العربي المعروفة وأجملها على الإطلاق في الشكل الخاص لصور الحروف وتركيبها الفني في بناء نص اللوحة الخطية، وكتابته تحتاج إلى إجادة تامة، إذ أن أقل القليل في الليونة أو الخشونة، تعد خطأ فادحا في كتابته لكبر حجمه[٦٢]، ويرجع ابتكار الثلث إلى رجلين من زمن الخلافة الأموية بالشام هما الضحاك بن عجلان[٦٣] وإسحاق بن حماد[٦٤]، ثم اخذ عنهما ابراهيم الشجري[٦٥]، والذي طوره إلى خط اسماه الثلثين أو الثلث، وحسن هذا الخط إبان العهد العباسي، وقد نسب إلى الوزير ابن مقلة[٦٦] أنه وضع قواعده في سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م، ومن الذين لهم اليد الطولى في ارتقاء هذا الخط في العهد العثماني الشيخ حمد الله الأماسي[٦٧]، ومصطفى راقم[٦٨].

دراسة الخط الفنية

هناك بعض العيوب في حروف خط الثلث المستخدمة في هذا النقش، وربما يعود السبب في ذلك لعدم براعة النقاش الذي قام بعمل هذا النقش، وعليه اختلفت فنية كتابة حروف النقش على القاعدة الحجرية عن الكتابة الورقية وظهرت بعض الحروف غير واضحة أحيانا، فكان فيها بعض الإزاحات والميلان، وفي بعض الأحيان يصعب رد الحروف إلى خط الثلث[٦٩].

جاءت كلمات الشطر الأول متراصة ومضغوطة خاصة في كلمة "خليفتنا"، إذ أن هناك تداخلا بين الأحرف وكأنها كتلة واحدة تخالها الطغراء، وجاء حرف الخاء في "خليفتنا" غليظا يشبه حرف الطاء.

في الشطر الثاني جاء حرف الدال في "دعا" ملامسا لحرف العين رغم وجود فاصل بسيط بين حرف الراء في كلمة "راشد" وحرف الألف في كلمة "دعا".

جاءت الكلمات في البيت الثاني واضحة في الشطر الأول، وفي الشطر الثاني تعرض النقش لعمل بشري أدى إلى فقدان ثلاث كلمات.

في البيت الثالث نجد أن الخطاط أو النقاش لم يكمل شكل الحروف، كما في حرف النون في كلمة "حسين". وكان هناك لبس في قراءة كلمة "يشير" في الشطر الأول من البيت الرابع بسبب طول سن الياء وكأنها لام، أما الشطر الثاني فكان واضحا.

حرص النقاش على نقاط الإعجام والتي نفذت على هيئة التدوير الكامل.

٥٩. أنظر: (Emino ğlu 2003)، ص ص ١٠٥-١٠٦.

٦٠. جاءت كلمة طومار لغويا من "طمره" وجمعها "طوامير" وتعني: الصحيفة، ويقال كتب في الطومار أو الطوامير، والطومار:الملف المتخذ من البردي أو الورق، وقد يتكون من ٢٠ جزءا يلصق بعضها ببعض في وضع أفقي ثم يلف على هيئة اسطوانة والملف يسمى الطومار ويكتب عليه بخط نسخي كبير عرف بخط الطومار، الذي لا يعتبر خطا مستقلا عن الخطوط الأخرى: أنظر: الرواي ١٩٩٢، ص ٤٣؛ العواجي ٢٠٠٠، ص ٩١؛ وحول خط الثلث، أنظر: الرواي ١٩٩٢.

٦١. يعتبر الجليل من الخطوط القريبة من خط الطومار ولكنه اكبر حجما، وسمي كذلك ليعني الكبير الجلي الواضح، وله سمات محددة للحروف العربي، وعنه تطور خط الثلث: أنظر: العواجي ٢٠٠٠، ص ٩١؛ أنظر: زايد ١٩٩٦، ص ٤٧١.

٦٢. أنظر: الرواي ١٩٩٢، ص٤٣؛ البغدادي (٢٠٠٨)، ص ١٤؛ بهنسي ١٩٩٥، ص (ق).

٦٣. الضحاك بن عجلان (توفي ١٥٤ هـ = ٧٧٠ م): من الخطاطين الأوائل وقد عرف بالكاتب، عاش في عهد الخليفة العباسي السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ=٧٤٩ - ٧٥٤ م)؛ أنظر: البغدادي (٢٠٠٨)، ص ١١، ٥٩.

٦٤. إسحاق بن حماد (توفي ١٦٩ هـ = ٧٨٥ م): من الخطاطين الأوائل، عاش في العهد العباسي، وذاع صيته في أيام الخليفة المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ=٧٥٤ - ٧٧٥ م)، وكذلك في أيام الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ =٧٧٥ - ٧٨٥ م) وقد عرف بالكاتب، أنظر: البغدادي (٢٠٠٨)، ص ص ١١، ٥٩.

٦٥. ابراهيم الشجري (ظهر حوالي٢٠٠ هـ = ٨١٥ م)، وهو من الخطاطين في العهد العباسي، وقد ظهر في بغداد وابتكر قلما من ضرب الجليل، بل هو أخف منه حركة وأحسن مزاوجة، أطلق عليه قلم الثلثين، ثم فرع عنه قلما سماه خط الثلث، وكان ابراهيم الشجري من تلامذة الأحول المحرر، وهو أستاذ أبي علي بن مقلة، وأخوه يوسف الشجري الذي أبتكر قلم النصف، أنظر: بهنسي ١٩٩٥، ص (ق)، ٧٩.

٦٦. ابن مقلة: هو محمد ابن مقلة، وزير عباسي من الشعراء والأدباء، استوزره المقتدر والقاهر والراضي، ومات سجينا عام ٣٢٨ هـ = ٩٤٠ م؛ *أنظر: النجد في اللغة والأعلام* ١٩٩٢، ص ١٤.

٦٧. حمد الله الأماسي (٨٣٣ - ٩٢٧ هـ = ١٤٢٩ - ١٥٢٠ م): عرف بالشيخ الخطاط وهو من أشهر خطاطي العهد العثماني بعد فتح استنبول، وقد نسب إلى بلده أماسه (مدينة تركية)، وكان يقيم في اسكدار(في الجانب الأسيوي من مدينة استنبول)، اشتغل بالخط واخذ عن الشيخ خير الدين المرعشي، عمل في عهد السلطان بايزيد الثاني واستمر في عمله حتى عهد السلطان سليمان القانوني وكتب بخط الثلث عدة لوحات في جامع السلطان بايزيد (استنبول)؛ يوجد له العديد من المخطوطات بقلمه: أنظر: البغدادي (٢٠٠٨)، ص ص ١١، ٧٢؛ بهنسي ١٩٩٥، ص (ق).

٦٨. الخطاط مصطفى راقم (توفي ١٢٤٢ هـ = ١٨٢٥ م): هو من أهم خطاطي الخط الديواني والثلث في العهد العثماني، قام بتطوير هذه الخطوط وجملها وحسنها أنظر: العواجي ٢٠٠٠، ص ٩١؛ كركوكي ١٩٨٠، ص ١٦٠، بهنسي ١٩٩٥، ص (ق).

٦٩. أنظر: الرواي، ص ٤٣، ١٦٠؛ يعقوب ١٩٨٦، ص ٤١؛ العواجي ٢٠٠٠، ص ٩١.

ملاحظات حول أحرف خط الثلث في النقش

- كان حرف الألف الذي يقع في بداية الكلمة ووسطها، أو نهايتها، غير متصل مع غيره وجاء عريضا يعلوه تاج، ومدببا في الأسفل.
- نفذ الخطاط حرف الباء في بداية الكلمة بسن طويلة على شكل كرسي، وفي وسط الكلمة ظهرت على شكل نبرة وبشكل محدب، وهي تحمل صفات خط الثلث، وينطبق هذا أيضا على حرف التاء والثاء.
- نفذ الخطاط حرف الجيم بشكل غليظ وله فتحة صغيرة وبشكل زاوية حادة.
- نفذ الخطاط حرف الخاء على هيئة منقار طير.
- نفذت صورة الدال في بداية الكلمة طويلة نسبيا ولها نبرة.
- نفذ حرف الزاي معكوفا في بعض الكلمات.
- نفذ حرف السين والشين على صورتين مختلفتين فجاءا بأسنان أو بدونها وكأن الحرف خط مستقيم.
- نفذ حرف الضاد بتجويف خفيف.
- تلويز رأس العين في بداية الكلمة ومربعة في وسطها.
- تدوير حرفي الفاء والقاف.
- رسمت النون بتجويف خفيف.
- رسمت الهاء بفتحة واسعة.
- تدوير حرف الواو.
- كتبت الياء بدون نقاط إعجام وهذه من مميزات القلم التركي.

لقد أوضحت هذه الدراسة، وبالوثائق، المراحل المختلفة التي مرت بها المراكز الإدارية في مدينة إربد. وقد جاءت نقوش دار السرايا لتؤكد المرحلة النهائية من بناء المبنى الذي يشكل المعلم التاريخي البارز للمدينة. وقد أظهرت هذه الدراسة أن هذه النقوش يمكن أن تساهم في التعرف على أساليب النّقاشين والخطاطين في العهد العثماني. كما أن الجوانب الفنية للنقوش، كالطغراء، ونوع الخط ليست بأقل أهمية ففيها يظهر الاهتمام الذي كان يوليه جهاز الإدار العثماني بالمراكز الإدارية الإقليمية.

المراجع

ابن الصديق، حسن
(١٩٨٨) غرائب البدائع عجائب الواقع (الحياة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي). تحقيق يوسف نعيسه. دمشق: دار المعرفة.

ابن منظور، محمد بن مكرم
(١٩٥٥) لسان العرب. بيروت: دار صادر.

أبو الشعر، هند غسان
١٩٩٥ إربد وجوارها (ناحية أبو عبيد). ١٨٥٠ هـ ١٩٢٨ م. عمان: منشورات بنك الأعمال.

الانسي باشكاتب، محمد علي
١٩٠٠ الدراري اللامعات في منتخبات اللغات (قاموس اللغة الثمانية).بيروت: مطبعة جريدة بيروت.

أوزتونا، يلماز
١٩٨٨، ١٩٩٠ تاريخ الدولة العثمانية (١-٢). استنبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل.

البابا، كامل
١٩٨٣ روح الخط العربي. بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر/ دار العلم للملايين.

البستاني، أنطون
١٩٨٧ محيط المحيط. مكتبة لبنان.

البطاينة، امجد محمد
٢٠٠١ دار السرايا اربد. ص ص ٦٧-٧٧ في حولية دائرة الآثار العامة ٤٥.

٢٠٠٧ دار السرايا اربد. ص ص ٨-١٤ في مهندس اربد السنة الثالثة/ العدد ٢ (حزيران).

البغدادي، هاشم محمد الخطاط
٢٠٠٨ طبقات الخطاطين. حرره وحققه، أدهم محمد حفش. إربد: دار الكتاب الثقافي.

بهنسي، عفيف
١٩٩٥ معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين. بيروت: مكتبة لبنان.
١٩٩٩ فن الخط العربي. بيروت: مكتبة لبنان.

بيركهارت، ج. ل
١٩٦٩ رحلات بيركهارت. ج٢: في سوريا الجنوبية، ترجمة أنور عرفات. عمان: دائرة الثقافة والفنون.

بيك، فريدريك ج.
١٩٣٤ تاريخ شرق الأردن وقبائلها. القدس: مطبعة دار الأيتام الإسلامية.

الجالودي، عليان عبد الفتاح
١٩٩٦ قضاء عجلون في عهد التنظيمات العثمانية (١٨٦٤ - ١٩١٨م). عمان: منشورات لجنة كتاب الأردن.

الحمود، ضيف الله
١٩٩٩ محمد الحمود. ص ص ٢٠١-٢٠٨ في رواد من الأردن. مجموعة أعمال الندوة التي عقدها المنتدى الثقافي في إربد عام ١٩٩٨. يوسف غوانمه، محرر مع آخرين. إربد: منشورات المنتدى الثقافي.

الخالدي، وليد
١٩٨٨ قبل الشتات: التاريخ المصور للشعب الفلسطيني ١٨٧٦ - ١٩٤٨. بيروت/ بيرزيت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية/ جامعة بيرزيت.

دائرة المعارف الإسلامية
د. ت دائرة المعارف الإسلامية، المجلد ١٥. طهران: انتشارات جيهان.

دحلان، أحمد بن زيني
١٩٩٧ الدولة العثمانية من كتاب الفتوحات الإسلامية. استنبول: مطبعة الحقيقة.

دودو أوغلو، عبد القادي
١٩٩٠ السلاطين العثمانيون. استنبول: دار النشر العثمانية.

رافق، عبد الكريم
١٩٦٨ بلاد الشام ومصر من الفتح إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ – ١٧٩٨). دمشق.

الراوي، عبد الباسط
١٩٩٢ الخط العربي نشأته وتطوره وقواعده. الإسكندرية: منشأة المعارف.

رضا، أحمد
١٩٥٨ متن اللغة (معجم لغوي). بيروت: دار مكتبة الحياة.

رستم، أسد: جمع وتحقيق
١٩٣٤ الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد على باشا: المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام وما يساعد فهمها ويوضح مقاصدها. بيروت: المطبعة الأميركية.

ريجنكوف، م. وآخرون
١٩٩٣ سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر. بيروت: دار النهار للنشر.

زايد، أحمد صبري
١٩٩٦ نماذج من الخطوط العربية. القاهرة: دار الطلائع.

الزركلي، خير الدين
١٩٨٠ الأعلام (قاموس تراجم). بيروت: دار العلم للملايين.

زكريا، أحمد بن فارس
١٩٩٠ مقاييس اللغة (معجم لغوي)؛ تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

زمباور، ادوارد
١٩٥٢ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي (١-٢). القاهرة: مطبعة جامعة فؤاد الأول.

سالنامه ولاية سورية
١٩٠٠ سالنامة ولاية سورية. دفعه (٣٢)، ١٣١٨ هـ =١٩٠٠ م. دمشق (الشام): مطبعة ولاية سورية.

سامي، شمس الدين
١٨٨٩– ١٨٩٨ قاموس الإعلام (تاريخ وجغرافيا لغاتي). باللغة العثمانية. استنبول: مهران مطبعة سي.

١٨٩٩ قاموس تركي (عثماني). استنبول: مطبعة جريدة أقدام.

سوريه: الجريدة الرسمية لولاية سورية العثمانية، مجموعة أعداد.

شقيرات، احمد صدقي
١٩٨٢ المسجد الزيداني في تبنه. عمان: مركز النهضة للخدمات الفنية.

١٩٩٢ تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن (١٨٦٤ هـ – ١٩١٨ م). عمان: مطابع الإيمان.

٢٠٠٣ تاريخ مؤسسة الإسلام في العهد العثماني. إربد: مطبعة كنعان.

د. ت ناحية الكورة في القرن ١٢ هـ – ١٨ م (دراسة غير منشورة).

٢٠٠٧ أول رئيس لبلدية اربد. الشيخ محمد الحمود الخصاونة. ص ص ٨-١٢ في أقلام جديدة العدد ١٠، تشرين الأول.

شهاب، الأمير حيدر أحمد
١٩٥٥ تاريخ احمد باشا الجزار. نشرة أنطونيوس شبلي وأغناطيوس عبده خليفة. بيروت: مكتبة انطوان.

شير، أدي
١٩٩٠ معظم الألفاظ الفارسية المعربة. بيروت: مكتبة لبنان.

طربين، أحمد
١٩٩٠ فلسطين في عهد الانتداب البريطاني. ص ص٩٩١-١١٦٨ في الموسوعة الفلسطينية. القسم الثاني: الدراسات الخاصة/المجلد الثاني: الدراسات التاريخية. بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية.

الطوالبة، محمد
١٩٨٢ مدينة إربد: دراسة في جغرافية العمران. رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، جامعة الإسكندرية.

العبادي، احمد عويدي
٢٠٠٤ العشائر الأردنية (الأرض والإنسان والتاريخ)، مذكرات وثائق ومراسلات (١٨٥٠ -٢٠٠٤ م). عمان: مكتبة المحتسب للنشر والتوزيع.

العواجي، منصور بن ناصر
٢٠٠٠ جماليات الخط العربي. الرياض: دار طويق للنشر والتوزيع.

كركوكي، محمد عزت
١٩٨٠ نماذج من بدائع الخط العربي. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

مجهول
١٨٨٦ قضاء عجلون. ص ٤٠٧ في البشير عدد ٨٤٣، ١٨٨٦/١١/١٨.

المنجد في اللغة والأعلام
١٩٩٢ المنجد في اللغة والأعلام ، الطبعة ٣٣. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، منشورات دار الشرق.

موسى، سليمان والماضي، منيب
١٩٥٩ تاريخ الأردن في القرن العشرين. عمان.

الموسوعة الفلسطينية
١٩٨٤ الموسوعة الفلسطينية (القسم العام). دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية.

يعقوب، أميل
١٩٨٦ الخط العربي (نشأته، تطوره، مشكلاته، دعوات إصلاحه). طرابلس (لبنان): جروس برس.

Başbakanlık Osmanlı Arşivi
1995 Başbakanlık Osmanli Arşivi Katalogları Rehberi. Osmanlı Arşivi Daire Baskanlıgı yayın nu 26. Ankara: T.C. Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü.

Cohen, A.
1973 Palestine in the 18th Century: Patterns of Government and Administration. Jerusalem: Magnes Press, The Hebrew University.

Emino ğlu, M.
1992 Osmanlı Vesikalarını Okumaya Giris. Kızılay, Ankara: Türkiye Diyanet Vakfı.

Gaube, H.
1978 Arabische Inschriften aus Syrien. Beirut/Wiesbaden: Franz Steiner Verlag.

Lenzen, Cherie und Knauf, E. A.
1988 Irbid (Jordanie). Pp. 238-247 in Réveu Biblique 95 (No 2, Avril).

Öztuna, Y.
1990 Devletler ve Hânedanlar. Ankara: Kültür Bakanligi.

Sertoğlu, M.
1986 Osmanlı Tarih Lugatı. Istanbul: Enderun Kitabevi.

Umur, S.
2001 Osmanlı Padişah Tuğ raları. Istanbul: Cem Yayınevi.

Unat, F. R.
1984 Hicrî Tarihleri Milâdî Tarihe Çevirme Kilavuzu. Ankara: Türk Tarih Kurumu Basimevi.